

الفصل السَّابع

- ١- يعقوب ويهوذا.
- ٢- النبيُّ موسى.
- ٣- فرعون والفصح.

١ . يعقوب ويهوذا

«وَأَسْلَمَ إِبرَاهِيمُ رُوحَهُ وَوَمَاتَ بِشَبِيحَةِ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبَّانًا أَيَّامًا، وَأَنْضَمَ إِلَى قَوْمِهِ، وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ... هُنَاكَ دَفِنَ إِبرَاهِيمُ وَسَارَةَ أُمَّرَأَتَهُ»

(تكوين ٢٥: ٨-١٠)

ما الذي حدث بعد رحيل إبراهيم؟ كما قال الله، فقد تشعب نسل إسماعيل وأصبح أمماً عظيمة. كما أن الله جدَّ وعده أو عهده مع إسحاق وقال له بأنه سيجعله أباً للأمة التي سيأتي منها المخلص. وعاش كل من إسماعيل وإسحاق حياة طويلة ثم ماتا.

يعقوب

كان لإسحاق ابنان: عيسو ويعقوب.

كان عيسو مثل قايين؛ فقد عاش حياته بطريقته الخاصة، وكان يفعل ما يراه مناسباً في عينيه. أما يعقوب فكان يؤمن بالله فاعتبره الله باراً. وكثيراً ما كان يعقوب يُقدِّم لله ذبائح حيوانية على المذبح.

«فَأَتَى يَعْقُوبُ إِلَى لُوزَ ... وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا... لَأَنَّهُ هُنَاكَ ظَهَرَ لَهُ اللَّهُ...»

(تكوين ٣٥: ٦، ٧)

١٩٠٠
قبل الميلاد

راوبين
شمعون
لاوي
يهوذا
دان
نفتالي
جاد
أشير
شاكِر
زبولون
يوسف
بنيامين

يهوذا

يعقوب

(إسرائيل)

عيسو

٢٠٠٠
قبل الميلاد

(إبرام)

إبراهيم

سارة

(ساري)

إسحاق

كذلك، كان يعقوب يؤمن بالمبادئ المعلنَة في كلمة الله:

«... وَبِدُونَ سَفْكَ دَمٍ لَا تَحْصُلُ مَغْفَرَةٌ»
«لَأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِتَكْفِيرِ عَن نَفْسِكُمْ، لِأَنَّ الدَّمَ يُكْفِرُ عَنِ النَّفْسِ»

(عبرانيين ٩: ٢٢)

(لاويين ١٧: ١١)

ورغم إخفاقات يعقوب الكثيرة أثناء حياته، إلا أن الله كان مركز ثقته. وقد تغير اسمه لاحقاً إلى «إسرائيل» الذي معناه «الله يعلب». وقد جدَّ الله وعده مع يعقوب أيضاً؛ وهو نفس الوعد الذي قطعه لإبراهيم وإسحاق من قبل. وهكذا، فقد قال الله ليعقوب:

«أَنَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ... وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَثْرَابِ الْأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْبًا وَشَرْقًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَيُؤْتِي نَسْلَكَ جَمِيعَ قَبَائِلِ الْأَرْضِ»

(تكوين ٢٨: ١٣، ١٤)

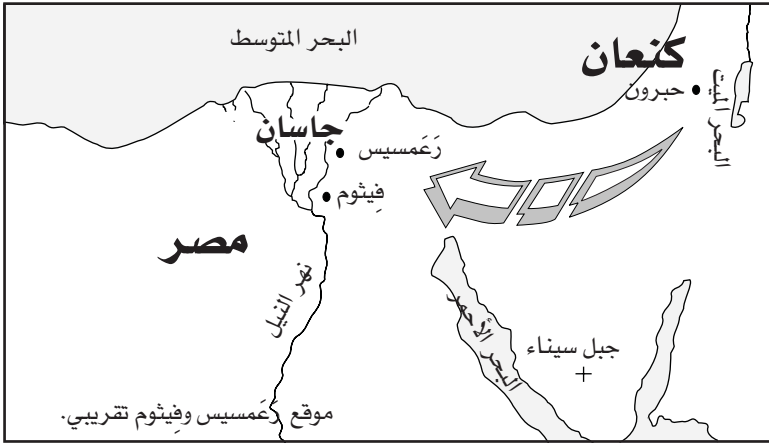
كانَ اللهُ يَقُولُ ليعقوب إنَّ واحداً من نسله سيكون بركة لجميع الأمم - وهذه إشارة إلى المخلص الموعود.

كان ليعقوب (أو إسرائيل) اثني عشر ابناً أصبحوا فيما بعد رؤساء الأسباط (القبايل) الاثني عشر الذين تألفت منهم أمة إسرائيل! وقبل أن يموت يعقوب، تنبأ أن المخلص سيأتي من نسل ابنه يهوذا.

عاش إبراهيم وإسحق ويعقوب حياةً شبه بدويّة في أرض كنعان. وفي أواخر سنوات يعقوب، ضربت مجاعة شديدة البلاد ممّا دفعه هو وأبناؤه إلى الارتحال إلى مصر. وفي ذلك الوقت، كان عدد الأشخاص الذين نزلوا إلى مصر سبعين شخصاً فقط، وقد استقبلتهم مصر استقبالاً جيداً وعاملتهم معاملةً حسنة. وكما نعرف جميعنا فقد كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر - ألا وهو يوسف - قد أخذ عبداً إلى مصر قبل سنواتٍ طويلةٍ من تلك المجاعة. لكن بسبب عناية الله بيوسف، وبسبب استخدامه لمواهبه بطريقةٍ حكيمة، أصبح يوسف مسئولاً رفيع المستوى عند فرعون. وهذا هو السبب الذي جعل فرعون يُعامل عائلة يوسف معاملةً حسنة حيث أعطاهم أرضاً في دلتا النيل الخصبة في منطقة تُسمّى «جاسان» فبقوا فيها بانتظار انتهاء المجاعة.

وبعد ٢٥٠ سنة، كان نسل يعقوب ما زال هناك في مصر؛ لكنّ عددهم آنذاك كان قد بلغ مليونين ونصف المليون نسمة تقريباً. وهكذا، فقد أصبح نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب أمةً كبيرة بالفعل؛ لكنهم لم يكونوا في الأرض التي أرادهم الله أن يكونوا فيها. فقد وعدهم الله بأرض كنعان وليس بأرض جاسان في مصر. لكنّ الله لم ينس وعده حيث أنه قال ليعقوب قبل أن ينزل هو وعائلته إلى أرض مصر:

«وَمَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأُرِدُّكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَرْضِ، لِأَنِّي لَا أَتْرُكَكَ حَتَّىٰ أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ»
(تكوين ٢٨: ١٥)



٢ . النبي موسى

يُكُنُّ بِإِمْكَانِ فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَنْ يَتَجَاهَلَ وَجُودَ مِليُونَيْنِ وَنِصْفِ عِبْرَانِي فِي أَرْضِ

مِصْرَ. لِهَذَا فَتُخْرَجُ بِالفِكْرَةِ التَّالِيَةِ:

فَقَالَ فِرْعَوْنَ لِشَعْبِهِ: «هُؤُودًا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْنُالْ لَهُمْ لِنَلَأَ يَمُومًا، فَيَكُونُ إِذَا حَدَّثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَىٰ أَعْدَائِنَا وَيَحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الْأَرْضِ.»

فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِرُ لِكَيْ يَذْلُوهُمْ بِأَتْقَالِهِمْ، فَبَنُوا لِلْفِرْعَوْنَ مَدِينَتِي مَخَازِنَ، فَيُثْمِرُوا، وَرَعْمَسِيَس.

وَلَكِنْ بِحَسْبِهَا أَذْلُوهُمْ هَكَذَا نَمَوْا وَآمَدُوا. فَاحْتَشَبُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، وَمَرَرُوا حَيَاتِهِمْ بِعِبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ ... (خروج ١: ٩-١٤)

لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْسِ وَعُودَهُ حَيْثُ يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ:

فَسَمِعَ اللَّهُ أُنْيُنَهُمْ، فَتَذَكَّرَ اللَّهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَنَظَرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلِمَ اللَّهُ وَرَقَّ لِحَالِهِمْ (خروج ٢: ٢٣-٢٥)

كان لدى الله خطة لتخليص بني إسرائيل من عبوديتهم، وكان الشخص الذي اختاره الله لهذه المهمة هو رجل عبراني يُدعى «موسى». وُلِدَ موسى في مصر من أبوين يهودان من نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب (أو إسرائيل) ورغم أن ملك مصر أمر بطرح كل ابنٍ عبرانيٍّ يولد في النهر، إلا أنَّ عناية الله شاءت أن ينجو موسى من الموت وأن يتربى في بيت فرعون ويتلقى أحسن تعليم موجود في ذلك الزمان في أرض مصر. وحدث بعد أن كبر موسى أنه لمح رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً، فما كان منه إلا أن قتله وهرب إلى الصحراء لينجو بحياته. وهناك، أصبح موسى راعي غنم وبقي كذلك مدة أربعين سنة. وكان رعي الخراف تدريباً خاصاً أعدَّه الله لموسى.

وَأَمَّا مُوسَى ... فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللَّهِ حُورِيبَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ بِلَهَيْبِ نَارٍ مِنْ وَسْطِ عَلْيَقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعَلْيَقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعَلْيَقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الْآنَ لِأَنْظُرَ هَذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. بَلَاذَا لَا تَحْتَرِقُ الْعَلْيَقَةُ؟»

فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَا لَ يَنْظُرُ، نَادَاهُ اللَّهُ مِنْ وَسْطِ الْعَلْيَقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى». فَقَالَ: «هَإِنْدَا». فَقَالَ: «لَا تَقْتَرِبْ إِلَى هَهُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ». ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ، إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ ...» (خروج ٣: ١-٦)

من المؤكَّد أنَّ دم موسى قد تجمَّد في عروقه في تلك اللحظة. فقد كان يعرف عن الإله العليِّ، ويعرف أنَّ الله هو خالق ومالك كل شيء، وأنَّه إله قُدُوسٌ ومُنْفَصِلٌ عن البشر بسبب خطاياهم. وقد كان موسى نفسه خائفاً - فقد كان قاتل نفسٍ.

فَغَطَى مُوسَى وَجْهَهُ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللَّهِ. فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَدَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسْخِرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ. ... فَالآنَ هَلُمَّ فَارْسِلْكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتَخْرِجْ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ» (خروج ٣: ٦، ٧، ١٠)

لا بُدَّ أنَّ موسى تنهَّد تتهيدة راحة حينذاك. فالله لم يأت لكي يعاقبه على خطيئته، بل لكي يُوَكِّله بمهمة. لكن كانت هناك مُشكلة. فقد كان موسى راعي غنم؛ أمَّا المهمة فكانت تبدو صعبة للغاية؛ فَمَنْ يَكُونُ هُوَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ؟ وَمَنْ سِيُضِعُّ ثِقَتَهُ فِي رَجُلٍ يَقُولُ بِأَنَّهُ تَحَدَّثَ مَعَ عَلْيَقَةٍ (شجرة صغيرة) مُشْتَعَلَةٍ لِهَذَا، قَالَ مُوسَى لِلَّهِ:

«مَا أَنَا أَنِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟»

فَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ». وَقَالَ: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ» (خروج ٣: ١٣-١٤)

إنَّ عبارة «أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ» تعني «أنا الكائن الدائم»: أي أن الله موجود بقدرته الذاتية.

«... هَذَا هُوَ اسْمِي إِلَى الْأَبَدِ، وَهُوَ الْاسْمُ الَّذِي أَدْعَى بِهِ مِنْ جِبِلِّ إِلَى جِبِلِّ. اذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَدْ تَجَلَّى لِي قَائِلًا: إِنِّي حَقًّا قَدْ تَفَقَّدْتُكُمْ، وَشَهِدْتُ مَا أَصَابَكُمْ فِي مِصْرَ، وَهَا أَنَا قَدْ وَعَدْتُ أَنْ أَخْرِجَكُم مِّنْ ضَيْقَةِ مِصْرَ... إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ... هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، فَيَسْمَعُ الشُّيُوخُ لِكَلَامِكَ...»

(خروج ١٥: ١٧-١٥ - التفسيرية)

ورغم أن موسى كان يخشى من العواقب، إلا أنه كان يعلم أيضاً أن الله يحافظ على وعده دوماً. وهكذا، فقد حَزَمَ موسى أمتعته وعاد مُتوجهاً إلى مصر، وإلى فرعون، وإلى عبيد بني إسرائيل. وفيما كان موسى في طريقه إلى مصر التقى بأخيه هارون الذي أرسله الله ليكون الناطق بلسانه.

ثُمَّ مَضَى مُوسَى وَهَارُونَ وَجَمَعَا جَمِيعَ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَتَكَلَّمَ هَارُونَ بِجَمِيعِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهِ، وَصَنَعَ الْآيَاتِ أَمَامَ عَيْنِ الشَّعْبِ. فَأَمَنَ الشَّعْبُ. وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ، خَرُّوا وَسَجَدُوا

(خروج ٤: ٢٩-٣١)

وهكذا، فقد تمَّ الأمر بحسب قول الله تماماً. فقد آمن الشعب وسجدوا للرب. وكان الله يحفظ وعده.

٣ . فرعون والفصح

إقتاع موسى وهارون لشيوخ بني إسرائيل بأن الله قد تكلم معهم أمراً سهلاً **كان** بالمقارنة مع إقتاع فرعون بالفكرة نفسها.

وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَا لِفِرْعَوْنَ: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلَقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ». فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأَطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لَا أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لَا أَطْلِقُهُ»

(خروج ٥: ٢٠، ١)

كان فرعون مُحَقَّقاً في نقطة واحدة فقط ألا وهي أنه لا يعرف الرب. فقد كانت مصر تعبد العديد من الآلهة مثل إله الشمس، وإله العواصف، وإله النيل. بل حتى أن فرعون نفسه كان يُعْتَبَرُ إلهاً وكان لكل إله من هذه الآلهة رمز خاص به مثل النسر، والضفدع، والعقرب، وغيرها. وبالتالي، فقد كان المصريون القدماء يعبدون الخليفة بدلاً من الخالق. ولم يكن فرعون يجهل الإله الحقيقي الواحد فحسب، بل كان يرفض فكرة التعرف إليه أيضاً. ففي نظره، كانت عبادة الله والخضوع لمشيئته تعني بالنسبة له خسارة كبيرة في القوة والمكانة. كما أن إطلاق سراح العبرانيين كان يعني خسارة اقتصادية كبيرة لأن ذلك سيتسبب في فقدان جزء كبير من الأيدي العاملة. لذلك، فقد كان فرعون يعارض فكرة إطلاق سراح العبرانيين مُعَارِضَةً شديدة.

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «الآن تَنْظُرُ مَا أَنَا أَفْعَلُ بِفِرْعَوْنَ. فَإِنَّهُ يَبِيدُ قُوَّةَ بَطْنِهِمْ، وَيَبِيدُ قُوَّةَ بَطْنِهِمْ»

١٠٢ ٣. فرعون والنصح

مِنْ أَرْضِهِ. لِذَلِكَ قَلَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أَخْرَجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَقْصَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَنْقِذُكُمْ مِنْ عِبَادَتِهِمْ وَأَخْلَصُكُمْ بِدِرَاعِ مَعْدُودَةٍ وَيَأْخُذُكُمْ عَظِيمَةً
(خروج ٦: ١٠)

قال الله لنبِيِّه موسى إنه سيجلب الديونة على مصر على شكل ضربات (أو مصائب) لأن فرعون لن يطلق الشعب العبراني إلا بهذه الطريقة. شعر موسى وهارون بالقلق حينما علموا بأمر هذه الضربات. فإن كان الله سيجلب المصائب على مصر، فما الذي سيفعله فرعون انتقاماً؟ لكن الله شَجَّع العبرانيين وأعاد تذكيرهم بوعوده لأبائهم الأوائل:
وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَقْصَالِ الْمِصْرِيِّينَ. وَأَدْخَلْتُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لِإِبْرَاهِيمَ، وَسَاحِقًا وَوَعْدُوبًا.
وَأَعْطَيْتُكُمْ يَا هَا مِيرَانًا. أَنَا الرَّبُّ
(خروج ٦: ٧)

شعب الله

قال الله إن بني إسرائيل سيصبحون شعباً له. ولم يكن هذا يعني أن شعب إسرائيل هو الوحيد الذين يمكنه أن يتبع الله الحقيقي الواحد؛ بل كان القصد من ذلك أن الله يريد أن يُعرِّف جميع أمم الأرض على ذاته من خلال شعب إسرائيل الذي اختاره الله ليكون نموذجاً حياً على تعاملات الله مع البشر جميعاً. وسوف نرى لاحقاً كيف قام شعب الله بهذا الدور المحدد.

قال الله إنه سينزل الضربات على مصر من أجل تحرير العبرانيين. وأثناء ذلك، سوف يُعلم الأممين درساً هاماً عن ذاته:

الدرس الذي سيتعلمه بنو إسرائيل:

«فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَقْصَالِ الْمِصْرِيِّينَ»
(خروج ٦: ٧)

الدرس الذي سيتعلمه المصريون:

«فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ جِينَمَا أُمِدُّ يَدِي عَلَى مِصْرَ وَأُخْرِجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِهِمْ»
(خروج ٧: ٥)

وهكذا، فقد كان الله عازماً على تعليم الأممين الدرس نفسه: أنه هو الإله الحي الحقيقي الواحد. رغم ذلك، لم يكن فرعون مُستعداً للإصغاء لما يقوله له موسى وهارون. لذلك، قال الله لموسى:

«أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يُخْرِجُ إِلَى الْمَاءِ، وَفَقِّ لِلْقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ... وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلُقْ شَعْبِي... وَهُوَذَا حَتَّى الْآنَ لَمْ تَسْمَعْ. هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهَذَا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَبْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ»
(خروج ٧: ١٥-١٨)

كان هذا هو ما حدث تماماً. فقد وَّجَّه الله ضربةً قويةً إلى صميم الديانة المصرية القديمة بأن جعل أحد آلهتها - ألا وهو نهر النيل - يتحوَّل إلى دَم. وبهذا، أصبح النهر كريهاً. رغم ذلك،

... فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا... وَلَمْ يُوجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى هَذَا أَيْضًا
(خروج ٧: ٢٢، ٢٣)

الله الحقيقي والآلهة الزائفة

استمرَّ اللهُ في تحذير فرعون بأن يُطلق بني إسرائيل. وفي كل مرة كان فرعون يُقسِّي قلبه ويرفض أمر الله، كان الله يجلب ضربة جديدة على مصر. وكانت كل ضربة من هذه الضربات تستهدف أحد آلهة المصريين:

ففي الضربة الأولى، تحوَّل نهر النيل إلى دم.

وفي الضربة الثانية، أرسل الله ضفادع فملأت كل مكانٍ دون استثناء.

وفي الضربة الثالثة، أرسل الله بعوضاً شرساً على الناس والبهائم في كل أرض مصر.^٢

وفي الضربة الرابعة، أرسل الله أسراباً من الذباب على بيوت المصريين.

وفي الضربة الخامسة، أهلك الله كل مواشي المصريين.

وفي الضربة السادسة، أصيب الناس والبهائم بدمامل مُتقيِّحة.

وفي الضربة السابعة، انْهَمَر بَرَدٌ شديدٌ على أرض مصر فأتلف الحقول.

وفي الضربة الثامنة، غَطَّى الجراد كل الأرض وأكل الحقول التي لم تتلف بسبب البرد.

وفي الضربة التاسعة، ضرب الله أحد الآلهة الزائفة الأخرى عند المصريين ألا وهو إله الشمس حيث غطَّى كل أرجاء مصر بظلام كثيفٍ جداً لمدة ثلاثة أيام.

كان مجموع الضربات التي أرسلها الله على أرض مصر هو عشر ضربات؛ لكنَّ الضربة العاشرة والأخيرة – والتي كانت الأقوى والأعنف – لم تكن قد جاءت بعد. وهكذا، فقد

تكلمَّ اللهُ مع موسى وهارون فقال:

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ضَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ أَيْضًا أَجِيبُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ. بَعْدَ ذَلِكَ يُطَلِّقُكُمْ مِنْ هُنَا. وَعِنْدَمَا يُطَلِّقُكُمْ يَطْرُدُكُمْ طَرْدًا مِنْ هُنَا بِالْإِتْمَامِ». وَقَالَ مُوسَى: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِنِّي نَحْوُ نِصْفِ اللَّيْلِ أَخْرَجْتُ فِي وَسْطِ مِصْرَ، فَيَمُوتُ كُلُّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بَكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى...»
(خروج ١١: ٤، ٥)

في حقيقة الأمر أنَّ الضربة الأخيرة كانت هي الأسوأ للمصريين وبني إسرائيل على حدِّ سواء إن لم يتقيّدوا بتعليمات الله. فقد كان الله القدوس على وشك إنزال دينوته العادلة على الخطيئة. لكن بما أنه إله مُحب أيضاً، فقد دبرَّ باباً للنجاة أيضاً. ولم يكن الأمر يتعلق بالمصريين أو بني إسرائيل. فحينما نتحدّث عن عدالة الله أو عن محبته، فإنَّ الجميع يتفون مُتساوين في محضره. وبالتالي، كما أنَّ محبة الله كانت تشمل المصريين والebraانيين على حدِّ سواء، فقد كانت دينوته تشمل أيضاً كل من لا يُطيعه. وهكذا، كانت أوامر الله تتضمَّن الآتي:

خُذُوا حَمَلًا ...

«... عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ حَمَلًا لِعَائِلَتِهِ، وَفَقًا لِبُيُوتِ الْآبَاءِ، حَمَلًا لِكُلِّ عَائِلَةٍ»
(خروج ١٢: ٣ – التفسيرية)

ذَكَرًا، خَالِيًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

لم يسمح الله بإحضار حَمَلٍ مريضٍ أو مُشوَّهٍ أو مُصابٍ بأيِّ عِلَّةٍ؛ بل أمرهم بأن يكون الحَمَلُ ذَكَرًا وخَالِيًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

«وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَمَلُ ذَكَرًا ابْنَ سَنَةٍ، خَالِيًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، تَنْقُوهُ مِنَ الْخِرْفَانِ أَوْ الْمَعِيْزِ،
(خروج ١٢: ٥ - التفسيرية)

اذبحوا الإجملان في الوقت المحدد.

«وَيَكُونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الْحَفِظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ. ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جَمْعٍ مِنْ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعِشِيِّ»
(خروج ١٢: ٦)

ضعوا الدم على عتبة الباب العليا والقائمتين.

«وَيَأْخُذُونَ مِنَ الدَّمِ وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعُتْبَةِ الْعُلْيَا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي يَأْكُلُونَهُ فِيهَا،»

(خروج ١٢: ٧)

ابقوا داخل بيوتكم حتى الصباح.

«وَأَنْتُمْ لَا تَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ بَابِ بَيْتِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ»

(خروج ١٢: ٢٢)

لا تكسروا عظام الإجملان.

«فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ يُؤْكَلُ. لَا تَخْرِجُ مِنَ اللَّحْمِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى خَارِجٍ، وَعَظْمًا لَا تَكْسِرُوا مِنْهُ»

(خروج ١٢: ٤٦)

سوف أحتاز.

«فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بَكَرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبِهَائِمِ. وَأَضْعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ. أَنَا الرَّبُّ، وَيَكُونُ لَكُمْ الدَّمُ عَلَامَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَارَى الدَّمِ وَأَعْبَرُ عَنْكُمْ، فَلَا يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلَاكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ»

(خروج ١٢: ١٢، ١٣)



حينما جاء الله بالدينونة لكي يقتل الأبرار، كان يُعَبَّر عن كل بيت وضع الدم على بابيه - سواء كان بيتاً مصرياً أو عبرانياً. فقد كان الدم عبارة عن علامة خارجية على أن الساكنين في هذا البيت يتقون بالله ويؤمنون بكلمته.

أفكار للتأمل

هل يمكنك أن تتخيل ماذا كان سيحدث لو أن شخصاً عبرانياً فُكِّر في نفسه قائلاً: «ليس من المعقول أن أذبح أفضل خروفٍ لدي! أعتقد أن ذلك الخروف العجوز الذي يوشك على الموت يفي بالعرض!»

أو ما الذي كان سيحدث لو أن شخصاً عبرانياً دعا أصدقاءه وقال لهم: «هيا يا رفاق، إنها ليلة جميلة والسماء صافية. لنحتفل في الهواء الطلق!»

هل كان الله سيتغاضى عن ما فعله الرجل الأول ويعبّر عن بيته بكل بساطة؟ وهل كان سيتغاضى عن ما فعله الرجل الثاني فيعضو عنه؟ بالتأكيد لا. فحتى لو أن بعض الأشخاص خالفوا تعليمات الله بنية حسنة إلا أن نواياهم الحسنة لا تُقلل من خطورة الموقف في أنهم عصوا أوامر الله الصريحة والمباشرة. فهم يفعلون مشيئتهم هم وليس مشيئة الله - تماماً مثلما فعل قايين والناس في زمن نوح. وبالتالي، فقد كان مصير كل الأشخاص الذين لم يتقيدوا بأوامر الله هو الموت مع المصريين لأنهم رفضوا تصديقه. وهكذا، فقد كانوا سيحصلون على ما يستحقونه تماماً.

من ناحية أخرى، ماذا كان سيحدث لو أن شخصاً مصرياً سمع بأن الله سينزل ضربة أخيرة فنكّر في نفسه قائلاً: «أنا أرى أن آلهتنا زائفة، لكن العبرانيين يعبدون الإله الواحد الحقيقي. أنا أريد أن أتبع هذا الإله؛ فما الذي يطلبه الله مني؟» ما الذي كان سيحدث لو أن هذا الشخص وضع ثقته في الله وحده، وقام بتنفيذ كل أوامر الله المتعلقة بالحمل والدم دون أن يلتفت إلى رأي جيرانه فيه؟ هل كان الله سيعبّر عن بيته في تلك الليلة؟ هل كان سينجو من العقاب؟ أجل، لأنه آمن بالله وجاء لله بحسب الطريقة التي اختارها الله نفسه. فإله يكرم الذين يكرمونه، ويباركهم، ويرحمهم أيضاً.

فَحَدَّثَ فِي نَصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بَكَرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بَكَرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكَرِ الْأَسِيرِ الَّذِي فِي السَّجْنِ، وَكُلِّ بَكَرٍ بَهِيمَةٍ. فَقَامَ فِرْعَوْنَ لَيْلًا هُوَ وَكُلُّ عِبِيدِهِ وَجَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ. وَكَانَ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيْتٌ. فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلًا وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمْ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا، وَادْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ. حُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضًا وَبَقَرَكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَادْهَبُوا. وَبَارِكُونِي أَيْضًا.» وَاللَّحُّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلًا مِنَ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: «جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ.» ... وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنَهُ أَنَّ الرَّبَّ أَخْرَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ...

(خروج ١٢: ٢٩-٣٣، ٥١)

الله يحفظ كلمته

كان الله رحيماً مع فرعون بأن أعطاه رسالة واضحة من خلال النبي موسى. كما أنه منحه الكثير من الفرص لكي يُطلق سراح بني إسرائيل. لكن حينما استمر فرعون في العناد والرفض، قام الله بمعاقبة المصريين كما قال تماماً. فالله ليس مثلنا نحن البشر. فقد

نُهِدُّ بِأَنْ نُؤَدِّبَ أَبْنَاءَنَا ثُمَّ لَا نُنْفِذَ مَا قُلْنَا لَهُ سَبَبٌ أَوْ لآخر؛ أَمَا اللَّهُ فَهُوَ يَحْفَظُ كَلِمَتَهُ دَائِمًا. من ناحية أخرى، اختبر بنو إسرائيل لطف الله لأنهم آمنوا به. فحينما جاء الله بالدينونة على مصر كان يعبر عن البيوت التي عليها دم. وقد كان سبب عيش هؤلاء الأبناء الأبقار هو ذبح تلك الحملان عوضاً عنهم. فقد كانت هذه هي الطريقة التي اختارها الله منذ البداية للتكفير عن خطايا الإنسان. وكان هذا هو ما فعله هابيل حينما قدم ذبيحة عن نفسه فقبلها الله منه. وحينما أوشك إبراهيم على تقديم ابنه إسحاق ذبيحة، كان الكبش هو البديل عن إسحاق. وفي حالة الشعب العبراني القديم، ماتت الحملان بدلاً عن أبنائهم الأبقار.

ويجب علينا أن نعرف أن هذه الذبائح البديلة كانت بمثابة أقوال مرثية تُعبر عن ثقة كل شخص في الله كمخلص له. وحيث أنهم آمنوا بالله، فقد أطاعوه.

أصبحت هذه المناسبة عيداً وتقليداً لدى بني إسرائيل حيث صاروا يأكلون الفصح في كل سنة كتذكار عن تخلص الله لهم من العبودية.

«وَيَكُونُ لَكُمْ هَذَا الْيَوْمَ تَذَكَارًا فَتَعِيدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعِيدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً»

(خروج ١٢: ١٤)

ولغاية يومنا هذا، لا زال الكثير من أحفاد إبراهيم وإسماعيل يضعون دم الذبيحة على أبواب وجدران بيوتهم كعلامة على حماية الله لهم من الشر. وفي حقيقة الأمر أننا لا نعرف يقيناً ما إذا كانت هذه العادة قد جاءت من شخص نجا من دينونة الله عن طريق اتباع هذه التعليمات، أم أنها جاءت من مصدر آخر. لكن الشيء الذي نعرفه يقيناً هو أن الله أظهر رحمته لكل الذين آمنوا.

وهكذا، قام الله بتحرير بني إسرائيل من عبوديتهم وأخرجهم من أرض مصر بقيادة النبي موسى. وبهذا، فقد حفظ الله وعده حيث أن كل شيء حدث بحسب كلامه تماماً.